الأفكار كالأدوية!

قد يظن البعض أن الأفكار لها صوابية مُطْلَقة، وأننا يمكن أن نتحدث بفكرة ما في كل ظرف وعلى أية حالة ومع أي أحد.. ولا أعتقد أن ذلك صحيح؛ وإنما كل فكرة من الأفكار لها وقت يناسبها، وحال ينبغي أن تتوجه فيه، وشخص يمكن أن يخاطَب بها.. فالأفكار لا تنفصل عن أزمانها ولا عن المخاطَبين بها، بل ولا عن المخاطِبين بها.

لماذا؟ لأن الحال الذي تُلقَى فيه الفكرة، أو الشخص الذي تُوجَّه إليه، أو الزمان الذي تُلقَى فيه؛ له دور في كيفية تَلقِّي هذه الفكرة، وفي قدرتها على أن تفعل فعلها، وتؤثر تأثيرها على النحو المطلوب.. وإلا فإن الفكرة قد تُحدِث نقيضَ المطلوب منها، وتُؤتِي خلافَ ما يراد لها..!

خذ مثلاً الصبر على الأذى.. هذه فكرة من الأفكار أو معنى من المعاني.. قد تكون في موطنٍ تسليةً للنفس عما ألمَّ بها، فتحمل المرءَ على الرضا بالقضاء، وعلى الصبر والسكينة.. بينما تكون في موطن آخر وسيلةً لصرف النفس عن المطالبة بحقها، ولحملها على التفريط فيما يجب لها!!

وخذ فكرة أخرى، مثل عدم التعلق بالدنيا.. ما الحال المناسبة للتوجه بهذه الفكرة والحث عليها؟ أهي حال المُعرِض عن الدنيا المستخِف بحقائقها تحت ذريعة الزهد والتعفف.. أم المنغمس في ملذاتها، التارك لما يجب عليه من فرائض؟!

وهل هذه الفكرة يراد منها مخاصمة الدنيا- التي هي مزرعة الآخرة- حتى نتركها لمن لا ينشدون حقًّا ولا يراعون حُرمة.. أم يراد منها تهذيب النفس، وتذكيرها بحقيقة وجودها، وبأن الدنيا دار عمل وفناء، لا دار مستقر وبقاء!!

ومثال ثالث: فكرة فضل الأمة الإسلامية، صاحبة الرسالة الخاتمة. إنها فكرة صحيحة، ولها شروط.. وهي حين تُستدَعى مع شروطها تكون دافعًا للعمل والشعور بالمسئولية، أما في غير ذلك فإنها قد تدفع للبطالة أو الزهو دون استحقاق!

ومثال رابع: يتمثل في أحاديث الفتن وعلامات الساعة.. فهل وردت هذه الأحاديث لإيقاع اليأس في النفوس، والقعود عن الحركة؛ أم للوعي والتبصرة، والحث على الاستعداد للمصير والتوقِّي من المهلكات!

للأسف، ما أكثر ما يكون الخلط بين هذه الأفكار والأزمان التي ينبغي أن توجَّه فيها، والأحوال أو الأشخاص الذين تناسبهم.. فتكون النتيجة على النقيض مما يجب أن تُفهَم عليه هذه الأفكار، وتحدث الإساءةُ للفكرة ذاتها- والتي لها توظيف جيد في مقام ما- ونُحرَم حسن الإفادة منها!

ولهذا نستطيع أن نلاحظ أن الأفكار كالأدوية؛ فكما أن دواءً من الأدوية لا يصلح لكل الأمراض، وإنما له مرض يختص بعلاجه.. فكذلك الأفكار!

هناك دواء يناسب لمن يعاني ارتفاع ضغط الدم، فإذا أُعطِي هذا الدواءُ نفسُه لمن يعاني انخفاض الضغط، فإنه يشرف على الهلاك، وربما لقي حتفه!

تمامًا كما أن هناك غذاءً يناسب الإنسان الصحيح، بينما لا يناسب مريض السكر مثلاً.. وما يكون غذاءً في حال الصحة يكون داءً في حال المرض! ولهذا فللأمراض أدويتها، وأغذيتها؛ كلُّ داء بما يناسبه ويصلحه، على حدة.. مثلما أن كل دواء يختص بنوع ما من الأسقام والأوجاع!

لكن المشاهَد، أن بعض الدعاة يظن أن الأفكار والمعاني هي أدوية لكل الأمراض، ولا يدركون أن كلَّ دواء له مرض يعالجه، وكلَّ داء له دواء يعالَج به!

وقد التفت قديمًا لهذه القضية ابن رشد، وهو يتحدث عن كيفية مخاطبة الناس بما ورد في من متشابهات، وقسَّم الناس، في كتابه (فصل المقال) إلى ثلاثة أقسام، موضحًا أن لكل قسم خطابًا يناسبه؛ فقال: "وأما الجمهور الذين لا يقدرون على أكثر من الأقاويل الخَطَابية، فَفَرْضُهم إمرارُها على ظاهرها، ولا يجوز أن يعلموا ذلك التأويل أصلاً. فاذًا، الناس في الشريعة على ثلاثة أصناف:

– صنف ليس هو من أهل التأويل أصلاً: وهم الخَطَابيون الذين هم الجمهور الغالب. وذلك أنه ليس يوجد أحد سليم العقل يَعْرَى من هذا النوع من التصديق.

– وصنف هو من أهل التأويل الجدلي: وهؤلاء هم الجدليون بالطبع فقط، أو بالطبع والعادة.

– وصنف هو من أهل التأويل اليقيني: وهؤلاء هم البُرهانيون بالطبع والصناعة، أعني صناعة الحكمة.

وهذا التأويل ليس ينبغي أن يُصرَّح به لأهل الجدل، فضلاً عن الجمهور"([1]).

وفي كتابه (تهافت التهافت) أوضح أن الآراء مع الإنسان، مثل الأدوية أو السموم.. فما يكوم دواءً لأحدهم قد يكون سمًّا لآخر.. وما يكون سمًّا في حالة قد يكون هو نفسه دواء في حالة أخرى!

يقول ابن رشد وهو يتحدث عن خطورة التحدث مع الجمهور بحديث الخاصة، واعتقاد أن الآراء كلَّها ملائمةٌ لكل نوع من أنواع الناس:

"فالكلام في هذه الأشياء مع الجمهور هو بمنزلة من يسقي السموم أبدان كثير من الحيوانات، التي تلك الأشياء سموم لها؛ فإن السموم إنما هي أمور مضافة [أي نِسْبِيَة]؛ فإنه قد يكون سمًّا في حق حيوان، شيء هو غذاء في حق حيوان آخر. وهكذا الأمر في الآراء مع الإنسان؛ أعني قد يكون رأي هو سم في حق نوع من الناس، وغذاء في حق نوع آخر. فمن جعل الآراء كلها ملائمة لكل نوع من أنواع الناس، بمنزلة من جعل الأشياء كلَّها أغذية للناس؛ ومن منع النظر مستأهله، بمنزلة من جعل الأغذية كلها سمومًا لجميع الناس؛ وليس الأمر كذلك، بل فيها ما هو سم لنوع من الإنسان، وغذاء لنوع آخر؛ فمن سقى السم، من هو في حقه سم، فقد استحق القَوَد [القصاص]، وإن كان في حق غيره غذاء. ومن منع السم ممن هو في حقه غذاء، حتى مات، واجب عليه القود أيضًا"([2]).

فعلى هذا ينبغي أن يُفهم الأمر في سائر التوجيهات والأفكار؛ بحيث لا نستدعي توجيهًا أو فكرةً ما في موقف معين، ويكون الاستدعاء خطأ، فَنُسِيء للتوجيه أو للفكرة.. بالرغم من أن هذا التوجيه أو تلك الفكرة لهما توظيف جيد في سياق آخر غير السياق الذي تم استدعاؤهما فيه.

([1]) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ابن رشد، ص: 58، تحقيق د. محمد عمارة، دار المعارف، ط2.

([2]) تهافت التهافت، ابن رشد، 2/ 252، تحقيق د. سليمان دنيا، سلسلة الذخائر، رقم 233.